الجاحظ

في مقالة «الفلسفة والالهيات»

للأديب محمد طه الحاجري

جاء في المقالة التي نشرتها (الرسالة) عن «الفلسفة والالهيات» مترجمة عن الأستاذ الفرد جيوم، بقلم الأديب الفاضل توفيق الطويل عبارة مروية عن شيخ الكتاب أبي عثمان الجاحظ في صدد الدعوى بأن مرد الفلسفة العربية في مادتها وصورتها وغايتها إلى حضارة البلاد التي غزاها العرب، وأن المعين الذي استقوا منه مذاهبهم هو الفلسفة اليونانية.

والذي يجب التنبيه اليه أولاً هو أن هذه العبارة مروية بالمعنى، بل بأصل المعنى، لا بالنص الذي كتبه الجاحظ، والذي لا ينبغي أن يعدل عنه أو يتسامح في إيراده، إذا كنا نلتزم الأسلوب العلمي «الجامي» في البحث والاستشهاد، ولا سيما حين يكون النص المروي من ميراثنا الأدبي، ردّ الينا، وورد في سياق عربي وموضوع عربي، ثم كان بعد ذلك لأمام من أئمة الأدب العربي. أما أن يترجم النص إلى الانجليزية، مع ما تستلزمه طبيعة الترجمة من اضافة المعنى واخفاء بعض خصائصه، ثم ترجمة هذه الترجمة إلى اللغة العربية، فصنيع غريب من شأنه أن يهلهل المعنى وينهكه، حتى لا يبقى منه في العبارة المنقولة إلا ظل خفيف ناصل. ولقد عرض الجاحظ نفسه لهذا المعنى في كتابه «الحيوان» في سياق كلامه عن الترجمة وخصائصها

ولكن وزر هذه المخالفة للأسلوب العلمي لا يرجع، فيما نحسب، إلى المترجم الفاضل بقدر ما يرجع إلى ضعف الروح الأدبية العربية التي تركت الجاحظ — وهو شيخ الكتاب وأمير البيان العربي بلا منازع — مغمور القدر مجهول المكان، وتركت ما أبقت عليه أحداث الزمن من ذخائر كتبه — وهي طرف فنية لا تكاد تظفر المكتبة العربية بما يناظرها — وكأنما هي كتب ألغاز وطلسمات من كثرة ما منيت به في نشرها من تحريف وتصحيف وخرم وتشويه وسوء طبع وفساد كبير

أما أصل هذه العبارة المترجمة فهو — فيما نرى — ما يلي:

(مأخوذاً من كتاب الحيوان، الجزء الأول، صفحة ٤٢، ٤٣ في أثناء الفصل القيم المستفيض الذي كتبه الجاحظ في فضل الكتب والترغيب في اصطناعها)

«ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها، وخلّدت من عجيب حكمتها، ودونت من أنواع سيَرها؛ حتى شاهدنا بها ما غاب عنا، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، لجمعنا الى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لما حسن حظنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة»

أما الاستشهاد بهذه العبارة التي سيقت في فضل الكتب على تلك الدعوى المريضة التي يلج الكاتب فيها، والتي يزجيها الهوى وتصوغها العصبية، فاستشهاد ضعيف متهافت كما ترى، فليس فيها إلا ما يقوله كل ناظر في تاريخ العلم من أنه حلقات متصلة مترادفة، يكمل لاحقها سابقها، ويبنى آخرها على أولها ابناء الحاضر على الماضي، في جميع مجالات الحياة وفروع المعرفة، وإن كتب الأوائل هي التي أوجدت هذه الصلة، ومهدت للفكر العربي سبيله

على أن هذا الاستشهاد غريب من ناحية شخصية الجاحظ، فانه من المثل القوية التي تبين إلى حد كبير بروز الشخصية العربية في عالم المعرفة، واصطباغها صبغة مستقلة. ويلاحظ قارئ كتابه الحيوان أنه كثيراً ما ينقل عن صاحب المنطق بصيغة التمريض: «وزعم صاحب المنطق» ويعقب عليه أحياناً بعبارات يتبين فيها اعتداده بنفسه، إذ يقول مثلاً: «وقد سمعنا ما قال صاحب المنطق من قبل، وما يليق بمثله أن يخلّد على نفسه في الكتب شهادات لا يحققها الامتحان، ولا يعرف صدقها أشباهه من العلماء»

أمثل صاحب هذا الأسلوب الشامخ بنفسه يزج في معرض الاستشهاد على أن الفلسفة العربية ليست الا صورة من الفلسفة اليونانية، مشوبة ببعض الفلسفات الفارسية والهندية؟!

وبعد، فنرجو ألا يحسب أحد أننا نقض بهذه الكلمة العاجلة، وبهذا التعقيب على صورة من صور الاستدلال من القيمة العلمية لكتاب «تراث الاسلام» الذي نرجو أن نرى فيه صورة من صور البحث الدقيق إن شاء الله!

محمد طه الحاجري